

وانتشار الكتابات القرآنية بانتشار الإسلام

قدم الأبجدية العربية وانتشار الكتابات القرآنية بانتشار الإسلام

بقلم الشيخ محمد الصالح رمضان¹

لعلّ من المعلوم أن الكتابة من الصناعات الحضرية التي تلازم الأمم الراقية ذات الملك والسلطان والمدنية، وتجاوى غيرها من الشعوب المتبدية التي تعيش على الفطرة، ولذلك لم تنتفش ولم تنتشر في العرب، إلا بعد ظهور الإسلام حين اجتمعت للمسلمين أسباب الرقي والملك والسلطان، وأصبحوا يسيطرون على معظم العالم المتمدن. أما قبل الإسلام فقد كانت جزيرة العرب خلواً من هذه الصناعة في معظمها لأن غالبية أهلها كانوا بدواً رُحَلَاء، لا يعنيه من أمر الكتابة شيء في حياتهم. بخلاف بلاد اليمن في جنوب الجزيرة، وبعض الجهات الشمالية منها كالعراق والشام والأردن، وبعض الحواضر الداخلية مثل : مكة والمدينة والطائف في الحجاز، حيث يوجد بعض الاستقرار، وامتهان التجارة بالخصوص يتطلب ويقتضي معرفة القراءة والكتابة والحساب أو الإمام بها على الأقل، خصوصاً وقريش كانت لها تجارة واسعة مع الدول والشعوب المجاورة، فهذا التبادل والاحتكاك الحضاري لابد أن يترك آثاره فيهم. وقد جاء الإسلام وكان فيهم أفراد كثيرون يقرأون ويكتبون.

1. كاتب وأديب.

أما البدوي الذي كانت حياته تتوقف على الارتحال والانتجاع. وعلى الصيد والقنص، أو على الغارة والسلب، فما كان ليجتاح إلى قراءة أو كتابة، فبقي أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ومع أميته وكونه لا يعرف رَسْماً لحرف، ولا حكماً لإعراب، فقد كان فصيحاً لا يلحن في كلامه، ويُبدع في القول نظماً ونثراً أولئك هم الأميون الذين بعث الله فيهم ﴿رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾¹ ومع ذلك فقد ظلت الأمية فاشية فيهم ردحا طويلا من الزمن بعد الإسلام في غالبيتهم.

الكتاتيب القرآنية

ومن الثابت أن "الكتاتيب القرآنية" بدأت في الصدر الأول للإسلام يدرس فيها الكبار والصغار على السواء مبادئ القراءة والكتابة - ولا أدل على ذلك من فداء الأسرى بالتعليم بعد أول معركة وقعت بين المسلمين والمشركين - ثم بدأت الكتابة في الانتشار شيئا فشيئا، حتى صارت "الكتاتيب" بطول الزمن مختصة فقط بتعليم الصبيان القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن.

وفي "تاج العروس" قصة طريفة يتضح منها أن "الكتّاب القرآني" كان موجوداً في زمن بن الخطاب رضي الله عنه، قال في صدد كلمة "أبجد" : "ويذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لقي أعرابياً فقال له : هل تحسن أن تقرأ القرآن، قال : نعم، قال : فاقرأ أم الكتاب (يعني الفاتحة)،

1. سورة الجمعة الآية، 2.

قال : والله ما أحسن البنات فكيف الأمهات؟ قال : فضربه ثم أسلمه إلى الكُتَّاب ليتعلَّم فمكث فيه مدة قليلة، ثم هرب منه، وأنشأ يقول :

أتيت (مهاجرين) فعلموني ثلاثة أسطر متتابعات
كتاب الله في رِقِّ صَح
وخطوا لي (أبا جاد) وقالوا : تعلم (سعفصا) (قُرَيْشَات)
وما أنا والكتابة والتهجي؟! وما حظ البنين من البنات؟

فهذه القصة تثبت وجود "الكتاب القرآني" في الصدر الأول للإسلام، وتُظهر نفور البدوي الفطري من تعلم الكتابة والقراءة، وعدم قبوله كلمات لا يعرف لها معنى في لغته، وتصوير أشكال حروف يراها من الطلاسَم التي تأبأها طبيعته البدوية، فما هي الأبجدية العربية التي كانت تُعلَّم إذ ذاك؟

الأبجدية العربية والألف باء

كانت حروف الهجاء العربي مجموعة في ثماني كلمات ليسهل حفظها وهي : "أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضطغ"، أما الكلمات الست الأولى فيشترك في ترتيبها واستعمالها الشعوب السامية كلها : "أراميين، عبريين، نبطيين، إلخ" وأما الكلمتان الأخيرتان : "ثخذ، ضطغ" فتختص حروفها باللغة العربية، ولا توجد في غيرها من لغات تلك الشعوب.

وسمي هذا الهجاء بـ "الأبجدية" لأن أولى كلماته هي "أبجد"، كان ذلك قبل أن ينتقل العرب إلى الترتيب المعروف الآن بـ "الألف باء"

كلمن هدم ركني هلكه وسط المحلة
سيد القوم أتاه الحنف نارا وسط (ظلة)
جعلت نارا عليهم دارهم كالمضمحلة

أما يوم "الظلة" فراجع فيه تفسير قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَهُم عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾¹، وقصة سيدنا شعيب مع أصحاب الأيكة في أرض مدين العربية وملخصها : أنه لما كذبوا رسول ربهم سلط الله عليهم الحر الشديد، فكانوا يفرون من الحر إلى كل ما يحميهم، إلى أن أظلتهم سحابة من الشمس، فاجتمعوا تحتها يستظلون بظلها غير الظليل، ليتقوا بها حر الشمس فأسقطها الله عليهم نارا حامية، فأحرقتهم جميعا. ذلك هو يوم الظلة.

الكتاب في المغرب العربي

أما في مغربنا العربي، فإن "الكتاب القرآني" انتشر فيه بعد الفتح العربي الإسلامي، بعد استتباب الأمن، واستقرار النظام الجديد، وكان الكتاب أولا في المساجد، فلما تعلم الكبار ما تيسر لهم من مبادئ الإسلام وأحكامه، عزموا على تنشئة أطفالهم تنشئة إسلامية، فأسسوا مع المسجد الكتاب القرآني متصلا به أو مفصولا عنه، ليتعبد الكبار في المسجد، ويتعلم الصغار في الكتاب، وهذا لا يمنع أن يبقى المسجد محل تعليم أيضا للشباب والكهول، ليتفقهوا في دينهم ويتعلموا لغة كتابه العزيز. ولعل هذا التداخل بين الكتاب والمسجد هو الذي جعل العامة عندنا تطلق عليهما كلمة جامع، فيقول العامي "ولدي يقرأ في الجامع"

1. سورة الشعراء الآية، 189.

أي في الكُتّاب أو المدرسة، كما يقول : "صليتُ في الجامع" أي في المسجد ولو لم يكن المسجد جامعاً للجمعة، والدلالة اللغوية لا تمنع من هذا الاستعمال، فمحل العبادة جامع للمصلين، ومكان التعليم جامع للقراء والمتعلمين، فالجامع لفظ مشترك بين المصلّى والكُتّاب.

وفي بعض مدننا التلية والساحلية يطلقون كلمة أخرى على الكُتّاب والمدرسة هي كلمة "المسيد"، ولعلها تحريف حضاري أو بربري لكلمة "مسجد" عندما كان المسجد محل عبادة وتعليم في أول عهده، فبدل أن يقولوا : "مسجد" قالوا : "مسيد" تخفيفاً، وجرياً على عادتهم في التحريف والتخفيف.

ففي قسنطينة مثلاً حي كامل يدعى "سيدي مسيد"، وفي تونس "مسيد القبة"، وربما في غيرهما أماكن كذلك تحمل هذا الاسم.

والخلاصة أن "الكُتّاب" هو الاسم العربي الذي كان يطلق منذ ظهور الإسلام على المكان الخاص بتعليم الكتابة وتحفيظ كتاب الله، دون أي شيء آخر من المعرفة.

وقد أخذت الكتاتيب القرآنية وطرائقها العتيقة تزول في الوقت الحاضر، بعد فرض وإجبارية التعليم الرسمي المجاني، بإنشاء المدارس الابتدائية العصرية، فنشأ عن ذلك اهتمام بتعليم القراءة والكتابة والحساب ومبادئ العلوم والرياضة والرسم والموسيقى. كاد يعم جميع الصبيان في سن التعلم، وبه سترفع الأمية في وقت قريب إن شاء الله، ولا يبقى في بلادنا من يجهل القراءة والكتابة والحساب، وهي لعمري حسنة من حسنات الحضارة والمدنية، ونعمة من نعم الاستقلال

والحرية، ولكن وراء الأكمة ما وراءها، فلا تغرنكم حضراء الدمن، ولا يخدعنكم بريق هذا التقدم إذا لم تهتم مع ذلك بالقرآن والتربية الدينية في مدارسنا. بل هجر القرآن ما فيه من هجر الإسلام والجهل بمبادئه، وفي هجرهما ما فيه من هجر قيمنا ومقوماتنا، وفي ذلك ما فيه من فقد مميزاتنا ومحو كياناتنا الذي به كنا وبه بقينا وسبقنا. فقد تقلص حفظ القرآن تقلصا مريعا، ومساجدنا اليوم -والحمد لله كثيرة- ولكنها بحاجة إلى من يعمرها من الأئمة المرشدين والمدرسين الأكفاء، وبعضها لا يجد أنصاف أو أشباه الأئمة. كان لنا أمل كبير في "المعاهد الإسلامية" بوزارة الشؤون الدينية لسد تلك الثغور وغيرها، ولكن هذه المعاهد قضى عليها بجرة قلم، ترضية لنعمة ناشزة، لم تجد من يرد عليها بالتي هي أحسن أو أحسن، مثل ما توقفت "ملتقيات الفكر الإسلامي" ولم تُعوّض بشيء.